شخصيات تراثية

١ - أبو بكر الرازي .. أبو الطب العربي

أ.عصام محمد الشنطي*

كثير هم الذين عُرفوا بالطب العربي ، واشتغلوا به في القرون الوسطى . ومن هؤلاء أبوبكر محمد بن زكريا الرازي ، الذي يُعَدّ قمة من القمم ، بل من أعظمهم قاطبة .

وُلد الرازي في مدينة الرَّيّ ، وبها نشأ وتعلَّم ، وهي تقع على مقربة من مدينة طهران اليوم . وتوفي في بغداد ، عام ٣١٣هـ (٩٢٥م) ، في أصحّ الأقوال .

بدأ في صباه وشبابه صائغًا ، وكان يغني ويضرب بالعود ويقول الشعر . ولكنه عزف عن الغناء ـ وما يصاحبه من الضرب بالعود ـ خجلاً . ورأى أنه لا يُستظرف حين يخرج من بين شارب ولحية[١] .

وتوجَّه إلى دراسة الكيمياء والفلسفة . ثم لم يلبث أن تعلّق بدراسة الطب ، وتلقّاه في بغداد على جهابذته . وكان قد سافر إليها في سنّ الثلاثين ، وأقام فيها ردحًا من الزمن . وقرأ في هذا العلم كثيرًا ، وتعمّق فيه وبرع ، وتكشفت له حقيقة الصنعة ، وطال عمره ، وفقد بصره في آخر مدته[٢] .

ولما انتهى من دراسة الطب في بغداد عاد إلى الرَيّ ـ مسقط رأسه ـ وأدار هناك مارستان (مستشفى) بلده . ثم استدعاه ـ بعد شهرته ـ الخليفة عضد الدولة في بغداد ، فأسّس فيها المارستان العضدي ، ورأس فيه أطباءه ، واتخذّه مكانًا للعلاج والتجارب والتأليف . وقال بعض مَنْ عاصروه : «ما دخلتُ عليه قط ، إلا رأيته ينسخ ، إمّا يسوِّد أو يبيِّض[٣]» .

وطار صيته طبيبًا ناجحًا ، دقيق الملاحظة ، غزير المعارف . ووصل إلى أعلى درجات المهارة في علاج المرضى وصحة تشخيص عِلَلِهم ، وبلغ مستوى العبقرية في هذا المجال .

وكان كريمًا متفضلا ، بارًا بالناس ، شديد الرأفة بالفقراء والمرضى . وكان يساعدهم

(*) خبير بمعهد المخطوطات العربية ، ومدير المعهد الثاني سابقًا .

(١) وفيات الأعيان ، لابن خلّكان ، تحقيق د . إحسان عباس . بيروت : دار صادر ، ١٩٧٧م/ ١٣٩٧هـ ، ١٥٨/٥ .

(٢) الوافي بالوفيات ، للصفدي ، اعتناء ديدرينغ . دمشق : المطبعة الهاشمية ، ١٩٥٣ ، ٧٦/٣ .

(٣) الفهرست ، لابن النديم . القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٤٨هـ ، ص ٤١٦ .

بالمال والعلاج بالمَجَّان . ونعلم أنه ألّف كتابًا سمِى بكتاب «الفقراء والمساكين» ، أو «لمَن لا يحضره الطبيب» . وهو لتطبيب الفقراء وغالب الناس بالأغذية والأدوية المتيسِّرة ، والأقل كلفة .

واستقدمه كثير من الملوك والأمراء ليقوم على علاجهم . ومن أشهر هؤلاء أمير كِرْمان وخراسان ، أبو صالح منصور بن إسحاق السَّاماني ، وتكونت بينهما صداقة[1] ، وألّف الرازى كتابًا فى الطب سمَّاه باسمه «المنصورى» .

ولقد تنبه هذا الطبيب إلى أن العلاج بالأدوية البسيطة أفضل من العلاج بالأدوية المركَّبة التى يُمزَج فيها مواد كيماوية لها مخاطرها وآثارها السيئة فى الجسم . فقد تؤدى هذه إلى علاج ناجع ، لكنها - فى الوقت نفسه - تؤذى الجسم بصورة أخرى . وبهذا يكون قد قارب فى هذا الوقت المبكِّر ما يسمّى فى الطب الحديث بـ«سُميَّات الأدوية ، وآثارها الجانبية الضَّارَّة» .

وكان يميل دائما إلى بدء العلاج بالأغذية ، قبل الأدوية ، وهو صاحب القولة المشهورة : «إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية ، دون الأدوية ، فقد وافق السعادة» ، وبالتالى كان إذا عالج بالأدوية ، يفضِّل منها الدواء البسيط ، قبل المركَّب ، يدسّه للمريض فى غذائه ، شريطة ألا يمجّ العليل مذاقه ، فيكره طعامَه .

ويعود إيمانه بالعلاج بالأغذية - قبل الأدوية - إلى أن غذاء الإنسان فى مراحل عمره وحياته له علاقة وثقى بالأمراض التى يمكن أن يصاب بها ، فنقص غذاء بعينه يؤدِّى إلى مرض بعينه . وواضح أن مثل هذه النتائج التى توصَّل إليها الرازى هى السائدة الآن فى نظريات الطب الحديث .

ومن جديد منهجه فى ممارسة الطب إقامةُ معالجاته للمرضى على الملاحظة والتجربة ، بعيدًا عن الفروض النظرية التى لا يسندها تطبيق عملى . فقد كان لا يثق بالمبادئ النظرية إلا إذا أيّدتها التجربة ، وأجازها الامتحان .

ويُذكر له فى التطبيقات العملية الناجحة ما أدهش الناس والمرضى على حدّ سواء ، منها : أن امرأة شكت له ألمًا فى المعدة وصداعًا فى الرأس ، وأنها تأكل كثيرًا ولا تشبع . فعالجها بأدوية مركَّبة مسهلة طاردة للديدان ، فخرج من بطنها «الدودة الوحيدة» التى يبلغ

(١) الفهرست ، لابن النديم ، ص ٤١٥ .

طولها نحو ستة أمتار . وقد وصف فى كتبه هذه الدودة وصفًا دقيقًا ، وتحدث عما تفعله فى الجسم ، وما تصيبه من أضرار .

وتقدم إليه مريض بقيء دموى حار الأطباء فيه . فعالجه الرازى بأن أدخل فى بطنه كثيرًا من الطحلب ، ثم وضعه فى حالة قيء شديدة ، فأخرج المريض عَلَقة كانت قد دخلت بطنه بعد أن شرب من مياه المستنقعات[١] .

وهدته بصيرته الطبية النافذة إلى الاهتمام بالحالة النفسية للمريض ، وأثرها الكبير فى الجسم . ونُسِب إليه القول المشهور : «ينبغى للطبيب أن يوهم المريض أبدًا بالصحة ، ويُرجِّيه بها ، وإن كان غير واثق بذلك . فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس» . وواضح أن هذه المقولة دليل على اهتمام الرازى بالعامل النفسى ، وتأثيره فى الروح المعنوية للمريض .

ومن ثَمَّ عالج أمراضًا بعينها علاجًا نفسيًا ، بوضع المريض فى حالة من التأثر الشديد ، وفورة من الخوف والغضب عارمة . وتذكر المصادر أنه حين لم يُشْفَ أمير مدينة بُخارى من آلام شديدة فى المفاصل أقعدته عن القيام والمشى ، بالرغم من علاجه بمختلف الأدوية ؛ توجَّه الرازى إلى العلاج النفسى بأن أَشهَر ـ فجأة ـ فى وجه الأمير سكِّينا يهدده فيها بالقتل ، فخاف الأمير وغضب غضبًا شديدًا ، وسُرْعان ما نهض واقفًا على قدميه ، وكان ـ كما قلنا ـ لا يستطيع ذلك .

وعُرف الرازى بأوّليّات فى الطب كثيرة ، هو مبتكرها ، منها : أنه خاط الجروح فى بطن المريض بأوتار الأمعاء التى تُسمَّى بـ «القُصَّاب»[٢] Catgut ، وصنع حبات لعلاج العيون ، كانوا يعالجون بها فى أوروبا فيما بعد ، وسمّوها بـ «أقراص الرازى» ، وهو أول من شخَّص مرض الجدرى والحصبة ، ووصف أعراضهما السريرية ، وبيَّن الفرق بينهما بكل دقة ، واستدل بالبول والنبض على الأجزاء المصابة فى الجسم ، وهو أول مَن قام بإجراء بعض التجارب الطبية على الحيوان ، خاصة على القرود ؛ لأنها أقرب الحيوانات للإنسان ، وهى طريقة تسير عليها مناهج الطب الحديث ، وهو أول مَن أنشأ مقالات خاصة فى أمراض الأطفال ، كما نبّه على أن يكون بناء المستشفيات بعيدًا عن أماكن تعفّن المواد العضوية ؛ حتى يضمن طهارة الجروح ، وعدم تخمّرها وفسادها .

---

(١) وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، ١٥٨/٥ - ١٥٩ .

(٢) القُصَّاب : مفردها القُصابة ، وهى الوَتَر المُسَوَّى من الأمعاء ـ المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، الطبعة الثانية . القاهرة : دار المعارف ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ، مادة (قَصَب) ، ٧٣٨/٢ .

وترك الرازى لنا مؤلفات كثيرة فى الطب ، بلغت نحو ستين كتابًا ومقالة أو رسالة . ولا ريب فى أن أشهر هذه المؤلفات وأجلّها كتابه «الحاوى» ويسمى أيضًا «الجامع الحاصر لصناعة الطب» . وهو موسوعة طبية شاملة جمع فيه كلَّ ما وجده متفرقًا من ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية التى سبقته . وكان أمينًا واثقًا من نفسه ، فَنَسب كلَّ ما نقله إلى أصحابه . وقد صدر الكتاب مطبوعًا فى (٢٣) جزءًا عن دائرة المعارف العثمانية فى مدينة حيدر آباد الدَّكَن بالهند . وبدأ صدور الجزء الأول منه عام ١٩٥٥ ، وتمَّت أجزاؤه فى عام ١٩٧١ .

وقد نال كتابه هذا شهرة واسعة فى أوروبا . وكان طلبة الجامعات الأوروبية يعتمدون عليه ، ويتعلمون الطب منه فى القرون الوسطى ، وبدايات نهضتهم ، وبعد عصر النهضة .

وقد تُرجم هذا الكتاب من العربية إلى اللاتينية ، وهى لغة العلم والأدب عندهم فى ذلك الزمان . وعُرف الرازى لديهم وقتئذ باسم «Rhazes»[١] . وأهم ما علّمهم هذا الكتاب أن علم الطب والمداواة قائم على الملاحظة والتجربة ، لا على نظريات وهمية .

ومن كتبه المشهورة أيضًا كتاب «المنصورى» ، («وسمَّاه أبو الرَّيْحان البِيْرونى «الكُنَّاش المنصورى»)[٢] ، وكان قد ألّفه ـ كما قلنا عَمًّا قليل ـ لأمير كِرْمان وخراسان ، وتحرَّى فيه الاختصار والإيجاز ، وجمع فيه من صناعة الطب علمها وعملها . وقد اكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة فى العربية واللاتينية طوال القرون الوسطى وبدء النهضة الأوروبية الحديثة . وكان قد تُرجم إلى اللاتينية وطبع غير مرَّة ، واعتُمد فى أوروبا كتابًا مهمًا فى موضوعه بعد كتابه «الحاوى» .

ونذكر من كتبه أيضًا ، كتاب «بُرْء الساعة» الذى انتقد فيه الأطباء الجشعين المستغلِّين الذين يصرون على مرضاهم بتكرار الزيارات والمعاينات غير الضرورية ؛ طمعًا فى الربح والمادة[٣] . وكأن الرازى يعيش بين ظهرانينا ، فى أيامنا هذه .

وهكذا يتضح أن ما قيل قديمًا فى الرازى حقٌ وعدلٌ ؛ ولذا قالوا : «كان الطب ميِّتًا فأحياه جالينوس ، وكان متفرقًا فجمعه الرازى ، وكان ناقصًا فأكمله ابن سينا» .

---

(١) الأعلام ، للزركلى ، الطبعة العاشرة . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٣٠/٥ . وانظر : معجم المؤلفين ، لكحّالة : بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣ ، ٣٠٤/٣ وما بعدها .

(٢) تاريخ الأدب العربى ، لبروكلمان (الترجمة العربية) . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٥ ، ٢٧٥/٤ .

(٣) دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب ، تأليف : حكمت نجيب عبدالرحمن . الموصل : جامعة الموصل ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ، ص٥٣ .